ابو مروان بن حيان
أديباً وكاتباً

الدكتور حازم عبدالله خضر

استاذ مساعد

تمهيد: —

علم من اعلام القرن الخامس للهجرة ومؤرخ كبير من مؤرخي الأندلس واعلامها المشهورين، استأثر بمكانة عالية هامة في المصادر القديمة ، مشرقية واندلسية عرف به ابن بسام في موسوعته الذخيرة الأثيرة وأشاد بفضله وتقدمه على معاصريه في الثقافة والأدب والتاريخ، وأورد له جملة من النصوص التاريخية والأدبية التي استلها ابن بسام من كتابيه المقتبس والمتين ، وعُني بتسجيل مآثره والكشف عن خصائصه وسماته في التاريخ وتدوينه جملة من الدارسين المحدثين ، وكان من أبرز الذين عنوا بذلك د. محمود علي مكي الذي كتب عنه مقدمة ضافية عند تحقيقه لجزء من أجزاء كتابه المقتبس وضمن هذه المقدمة تفصيلا وافياً نافعاً عن أبي مروان وثقافته وشيوخه وتلامذته ومؤلفاته .

وكان مما أشار اليه الباحث الكريم عدد من سمات أدب أبي مروان ونقده غير أني رأيت أن ذلك يحتاج إلى مزيد من الجلاء والوضوح وقدر مناسب من التفصيل في هذا الجانب الأدبي بعد ان أشبع الجانب التاريخي من ثقافته بحثاً وتفصيلا من قبل باحثين عديدين .

ويمكنني القول في ضوء ذلك أن ما دفعني إلى دراسة هذا العالم المؤرخ الأديب جهود هذا الباحث الكريم الدكتور محمود علي مكي وجهود آخرين تطرقوا إلى جوانب هذه الشخصية وسماتها في مواطن عديدة وبصورة مختصرة ، وكان من أسباب هذه الدراسة أيضاً كثرة النماذج النثرية التي احتفظ بها ابن بسام في ذخيرته رأيت انه يشكل ركناً هاماً في الجانب الأدبي من ثقافة أبي مروان وآثاره يستحق الدراسة المتأنية والنظر المستقصي لكي تكتمل — فيما أرى — الصورة الأدبية لأبي مروان بن حيان في كتابته ونثره إلى جانب تاريخه القيم ومنهجه الذي يعتمد الدقة واصابة المعنى وحسن العرض بأسلوب أدبي جميل.

اسمه ونسبه

حيان بن خلف بن حسين بن حيان بن محمد بن حيان بن وهب بن حيان مولى الأمير عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان (١)، ويذكر اسم ابن حيان ونسبه هذا مؤرخ آخر ويؤكد أنه قد قرأ هذا النسب بخط أبي مروان نفسه (٢) . ولا نكاد نجد خلافاً في هذا النسب بين المصادر المشرقية والاندلسية التي ترجمت لأبي مروان سوى ما يمكن تفسيره باختصار سلسلة هذا النسب كأن يقول بعضهم : (أبو مروان بن حيان بن خلف بن حسين بن حيان بن محمد بن حيان بن وهب بن حيان مولى الأمير عبدالرحمن بن معاوية إبن هشام بن عبدالملك بن مروان) (٣) .

ولد أبو مروان بقرطبة — كما تشير المصادر — سنة ٣٧٧هـ وتوفي سنة

---

(١) جذوة المقتبس / أبو عبدالله الحميدي ص٢٠٠ ترجمة ٢٩٧

(٢) الصلة / ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبدالملك / ص١٥٢ .

(٣) وفيات الأعيان / ابن خلكان ج٢ ص٢١٨

٤٦٩هـ ومعنى ذلك أنه قد بلغ تسعين عاماً عاصر خلالها فترات خطيرة مهمة من حياة المسلمين في الأندلس ؛ وخاصة فترة الفتنة وفترة الطوائف .

ففي صباه واوائل شبابه عاصر فترة الحجابة في ظل المنصور ابن أبي عامر الذي كان والد أبي مروان أحد كتابه المرموقين وأصفيائه المقربين . أما هو فلم يكن كاتباً للمنصور — فيما نرى — كما توهم بعض الباحثين (١)، ذلك أنه كان في الخامسة عشرة من عمره عند وفاة المنصور وهذه السن لا تؤهله لمنصب الكتابة عند الحاجب الذي كان خليفة بالفعل وكان الخليفة بالأسم هشاماً المؤيد ابن الحكم المستنصر؛ علماً بأن فن الكتابة لا يستطيع ممارسته إلا من قطع شوطاً في مضمار الثقافة ولكن أبا مروان شهد فترتي حكم ولدي المنصور عبدالملك وعبدالرحمن، وشهد بعد ذلك فترة الفتنة بما احتوته من الأعاصير السياسية العاتية والأحوال المتقلبة والأحداث الخطيرة الجسيمة التي تجلت في الصراع على السلطة والقتل والحرق والتدمير لمظاهر الحضارة في جوانب عديدة من حياة الأندلسيين في قرطبة العاصمة ومدن أخرى،وكان لأبي مروان فضل تسجيل العديد من جوانب تلك المآسي ضمن كتابيه الكبيرين المقتبس والمتين .

أما طلبه العلم في صغره: فالذي يفهم من ثقافته الواسعة وقلمه السيال ودقة تقصيه للأحداث واحاطته بتفاصيلها الواسعة أنه أقبل على العلم في وقت مبكر من حياته وأخذه عن مشايخ عصره وعلماء بلده وفقهائه وفي مقدمتهم والده خلف والشيخ (أبو عمر أبي الحباب النحوي صاحب أبي علي البغدادي،ولزم أبا العلا ءصاعد بن الحسن الربعي البغدادي وأخذ عنه كتابه المسمى بالفصوص وسمع الحديث على أبي حفص عمر بن حسين بن نايل وغيره ..) (٢) .

---

(١) ظهر الأسلام / أحمد امين جـ٢ ص٢٧٦

(٢) الصلة / ابن بشكوال ص١٥٢ والوفيات جـ٢ ص٢١٨ .

ونفهم من أخبار التاريخ أن أبا مروان دخل معترك السياسة وأسهم في بعض المناصب في الدولة مثل وظيفة صاحب الشرطة ، ولكنه — على ما يبدو — لم يستمر فيها طويلاً .

ثقافته ومكانته

ومن هنا فإن الباحث يستطيع أن يتصور الجهود العلمية التي بذلها أبو مروان مستفيداً من الظروف التي تهيأت له اذ كان والده خلف (يعيش في بلاط يقدر العلم والأدب ويُعنى بتشجيعهما والأخذ بأيدي أصحابهما ، فغير عجيب أن يجد خلف نفسه مدفوعاً إلى إجادة تثقيف إبنه وامداده بطائفة من المعلومات التاريخية والأخبار المؤكدة ، وقد انتفع ابنه الى اقصى حد بهذه الذخيرة النفيسة وضمنها كتبه ومؤلفاته ...) (١) .

ولهذا فقد احتل أبو مروان بعد مسيرته العلمية مكاناً مرموقاً في أهل العلم والثقافة والاداب وعرفوا فضله وسجلوا إعجابهم وتقديرهم له في مواطن عديدة من كتبهم ومؤلفاتهم ، قال بعضهم : (صاحب التاريخ الكبير في أخبار الأندلس ، وملوكها وله حظٌّ وافر في العلم والبيان ، وصدق الايراد...) (٢)، كما أشاد الأمراء والخلفاء بمكانته وحرصوا على توفير الحرية والراحة له على الرغم من أنه كان يشتد على بعضهم أحياناً ويمعن في انتقادهم والتحدث عن مساوئهم إلى جانب حديثه عن محاسنهم ومآثرهم ومن أدلة ذلك هذا النصح الواضح والمثال المعبر في قول مؤرخ مشهور ضمن التعريف بأبي مروان : (سلب) أبا الحزم ، فقال : والله صدق ، وإني والله ما أصلح لهذا الأمر ، ولكن مكرهاً لزمته ، وحلف عبدالملك بن جهور أن يسفك دمه فأحضره أبوه

(١) بعض مؤرخي الأسلام على أدهم ص٨١ .

(٢) جذوة المقتبس / الحميدي ص٢٠٠ وبغية الملتمس للطبي ص٢٦٠

أبو الوليد ، وقال : والله لئن طرأ على ابن حيان أمراً لا آخذن أحداً سواك ، اتريد ان يضرب بنا المثل في سائر البلدان بأنا قتلنا شيخ الأدب والمؤرخين ببلدنا تحت كنفنا مع ان ملوك البلاد القاصية تداريه وتهاديه ، وأنشد له نظماً ، وقال: سبحان من جعله اذا نثر في السماء واذا نظم تحت تخوم الماء) (١). وهذا يدل على أنه نظم الشعر وعرف به واشتهر إلى جانب شهرته التاريخية والنثرية ولكن لم يصلنا شيء يذكر من هذا الشعر .

أبو مروان الأديب :

وهذا هو الجانب الذي نودُ تسليط الضوء عليه ، ذلك لأن القسم الأكبر من الذين نظروا في حياة وآثار أبي مروان أكدّوا على الجانب التاريخي كما ورد في نصوص من المقتبس والمتين وقامت عليه شهرة ابن حيان في القديم والحديث ، وليس من شك في أن الشهرة التي نالها أبو مروان لاتعود إلى مكانته التاريخية فحسب وانما يعود قسم كبير منها إلى أدبه : كتابة وأسلوباً وبلاغة وبياناً مما يجعل للمضمون درجة أقوى في التأثير وإصابة المعنى ، ذلك أن أبا مروان كان (أديباً في الوقت نفسه والأدب والتاريخ يمتزجان في كل ماسطره قلمه امتزاجاً غريباً لا تعرف فيه أين يبدأ ولا أين ينتهي.) (٢) . وهذه النظرة هي التي قررها القدماء وأشاروا إلى توفر معاني الأدب والتاريخ في كتابة أبي مروان،وقد دلت عبارة صاحب المغرب على هذا في النص السابق حين وصفه أبو الحزم بشيخ الأدب والمؤرخين في بلد الأندلس وهي صفة قلّ أن تطلق على أحد من قبل القدماء ، واذا كان من أدوات التاريخ عند أبي

(١) المغرب في حل المغرب / ابن سعيد وآخرون ١١ ص١١٧ .

(٢) مقدمة تحقيق جزء من المقتبس د. محمود علي مكي ص١٠٤ .

مروان : المعاصرة والدراسة والبحث ومتابعة الأحداث وتسجيلها كما ذكر ذلك عن نفسه منذ صغره (١) ؛ فإن من أدوات الأدب التي اجتمعت لـــه (امتلاكه لعناصر اللغة على نحو لانراه توفر في مؤرخ قبله ولا بعده وقدرة عجيبة على الربط بين المعاني وملكة قصصية كانت تؤهل أبا مروان أن يصبح كاتباً روائياً من الطراز الأول..) (٢) . من هنا فإن الطابع الأدبي في أسلوب ابن حيان ضمن أحداث التاريخ يبدو واضحاً بالأستشهاد بالشعر أو حلّه في عبارات نثرية وعرض معانيه ، هذا بالأضافة إلى ذكر العديد من أعلام الشعر في الفترات التي يتحدث عنها ، ومن ذلك الجزء الذي يتحدث فيه عن خمس سنوات كاملة من أيام الحكم المستنصر ـ ٣٦٠ ـ ٣٦٤ وفيها يذكر ابن حيان أسماء شعراء منهم : طاهر بن محمد البغدادي المعروف بالمهند وقصيدته التي ألقاها بين يدي الحكم في عيد الفطر ويذكر منها ثمانية أبيات ، ومطلعها :

لولا الأمـام المـرتضى وسليلـه ماساغ تلفيـق القريض لناظـــم

ومنهم : محمد بن شخيص الذي القى قصيدة بين يدي الحكم أيضاً وقد أورد منها ثلاثة وأربعين بيتاً ومطلعها :

بـأيمـن إقبـال وأسعـد طائرٍ تباشيـر محتـوم من الأمر واقـع.

ومنهم الرمادي الشاعر المشهور ، ومحمد بن عباس الأستجي ومحمد بـن حصين الطبني وغيرهم (٣) وهكذا لو استعرضنا الأجزاء المحققة الأخرى من المقتبس ، فإننا نقف على عدد آخر من الشعراء الذين استشهد ابن حيان بأشعارهم في الأحوال والمناسبات المختلفة. ولعلّ مما يتصل بالأدب والطابع الأدبي ؛ ممارسة

(١) المرجع نفسه ص١٠٤ .
(٢) المرجع نفسه ص١٠٤ .
(٣) المقتبس من ابناء اهل الأندلس / تحقيق د. عبد الرحمن الحجي ص

ابي مروان النقد بما كان يبديه من ملاحظات حول مضامين الصور الشعرية التي يعرضها ، وقد لاحظ أحد الباحثين هذه الظاهرة ورأى أن التعريف بنقد ابن حيان مما يكمل الصورة الأدبية عنه : (فالنقد عند أبي مروان جانب جدير بأن توليه بعض العناية بل إننا نزعم أن تلك الأحكام التي أصدرها على أدباء الأندلس في ثنايا تاريخه ترفعه إلى مكان بارز في الصف الأول من النقاد ...) (١) ، ثم عزز الباحث رأيه هذا بذكر عدد من آراء ووجهات نظر نقدية لابي مروان في عدد من نصوص المشهورين من الأدباء في القرن الخامس للهجرة مثل ابن حزم الأندلسي .

ويؤكد باحث آخر السمة الأدبية في كتابات ابن حيان بطريقة الموازنة بينه وبين أديب مشرقي مشهور هو أبو حيان التوحيدي ويسمي الاثنين : (المؤرخان الكاتبان) (٢) كما عقد فصلاً مستقلا بهذا العنوان لاجراء هذه الموازنة متحدثاً عن التوحيدي مشيراً إلى أبرز سمات أدبه وأسلوبه .

وتناول الباحث نفسه أبا مروان بن حيان بتفصيل اكثر وأوضح ، اذ عرف بالخطوط العامة في حياة أبي مروان وثقافته وأدبه وما امتازت به كتابته التاريخية بأسلوب أدبي مؤثر معبر ، ثم ختم حديثه بموازنة بين الاثنين من خلال عرض سمات كل منهما وذكر أوجه الشبه والاختلاف بين اسلوبيهما وكان مما قاله في هذا : (... ولم يقتصر التشابه بين ابن حيان الأندلسي وأبي حيان التوحيدي على الاسم والكنية وجزالة الاسلوب وبراعته وإشراقه ، فقد كان كلا الرجلين من أقدر خلق الله على الثلب والهجاء وتصوير العيوب والنقائص

---

(١) مقدمة تحقيق جزء من المقتبس / د. محمود علي مكي ص١٠٨ .

(٢) بعض مؤرخي الأسلام – علي أدهم ص٧٢–٩٠ .

ونقد الرجال نقداً منصفاً في تصوير بارع وبيان شائق خلاب ...) (٤).ويختم الباحث هذا الفصل المهم من كتابه بعرض موجز لأبرز آراء المؤرخين في ابن حيان وخاصة اراء ابن بسام مؤرخ الأندلس وأديبها .

أبو مروان بن حيان كاتباً

لما كان عنوان البحث ينص على دراسة أبي مروان من الوجهة النثرية الأدبية فإننا لا نستطيع المضي في عرض آراء أبي مروان النقدية ومواقفه من الشعراء وأشعارهم وعنايته بنصوصهم في الأغراض المختلفة ، ولعل الله تعالى يوفق الى دراسة اخرى لهذه الشخصية العلمية التاريخية الادبية في جانبها الشعري والنقدي، تكون اكثر تفصيلا وأبعد استقصاءً لما امتاز به أبو مروان في هذا الجانب من ثقافته وأدبه ويكون الاهتمام هنا — بتوفيق الله — منصباً على الكتابة وسماتها الفنية عند ابي مروان ونقصد بوصف الكتابة هنا الخصائص الفنية والسمات الأدبية التي يبدو لنا أن أبا مروان قد برع فيها وأجاد فنونها بشكل واضح واسلوب ممتاز عن أقرانه ومعاصريه من المؤرخين والأدباء المشهورين دون ان يقف اهتمامه بالتاريخ حائلاً دون تمثل هذه السمة وحيازة اكبر قدر من خصائص الأدب وسمات البيان . وهذا الجانب من شخصية أبي مروان الثقافية والعلمية هو الذي يحتاج إلى المزيد من الدراسة والتأمل في نظرنا .

ولقد سبقت الاشارة في مواطن عديدة إلى عناية المؤرخين القدامى بهذه السمة وتسجيلهم لها من خلال تأملاتهم في اسلوب أبي مروان الأدبي ؛ ونضيف هنا أنهم قد خصوا الكتابة وسماتها في اسلوبه بالاشارة الواضحة والرأي الصائب والملاحظة الدقيقة ؛ يقول ابن بسام ضمن حديثه عن أبي مروان وإشادته بكتابته

---

(١) المرجع نفسه ٧٢—٩٠ .

الفنية واسلوبه بعد أن ذكر جملة من معايبه في الهجاء والثلب : (... ومع ذلك فقد كان سهماً لا ينمى رميُّه ، وبحراً لا ينكثب آذيّهُ ، لو ثلب الماء ما نفع ، او تعرض لابن ذكاء ما سطع ..) (١) .

كما أشار المحدثون إلى عديد من سمات أبي مروان في كتابته الأدبية والفنية وأشادوا باسلوبه البارع وفصاحته وقوة بيانه وحسن تمكنه من ناحية البيان ؛ يقول أحدهم : (وتدلنا كتابته التاريخية على أدبه الرفيع وأنه صاحب اسلوب سلس معبر رصين سهل العبارة مع فصاحة وبلاغة وبعد عن التزويقات اللفظية والزركشة السطحية ...) (٢)

ويصور باحث آخر بعض سمات اسلوبه التاريخي فيقول : (تبدو شخصية ابن حيان في تفرده بأسلوب لم يتبع فيه ناثري عصره الذين كان تكلف السجع والمحسنات البديعية اللفظية قد طغى عليهم فبرىء من التصنع وأصبح نثره محكماً لكل لفظ فيه قيمته) (٣) .

غير أن الباحث الكريم قد مضى في تعداد هذه الصفات معتمداً على النصوص التاريخية مستشهداً بها على وجود تلك السمات مما يوحي انها مرتبطة بدرجة أكبر بالأسلوب التاريخي والكتابة التاريخية . في حين توجد لأبي مروان نصوص نثرية أدبية عديدة . وإن إعادة النظر في النصوص التي احتفظ بها ابن بسام في ذخيرته تؤكد لنا وجود قدر وافر من النصوص الأدبية في الموضوعات المختلفة إلى جانب الكتابة التاريخية .

---

(١) الذخيرة / ابن بسام ق١ م٢ ص٥٧٤

(٢) أندلسيات / عبدالرحمن الحجي – المجموعة الأولى ص١٠٢

(٣) مقدمة تحقيق جزء من المقتبس / محمود علي مكي ص١٠٥ .

واذا تذكرنا أن ابن بسام يشير في مقدمة مجلد، الثاني من القسم الأول إلى جملة فصول وضعها تحت عنوان «فصول من كلامه في أوصاف شتى» (١) وهي تشكل صوراً أدبية من النثر الفني في موضوعات مختلفة ؛ تبين لنا جانب هام من كتابة أبي حيان الأدبية الفنية جديرة بالدراسة خاصة وأنها تمثل فصولاً أدبية غير الفصول التاريخية التي جاءت فيما بعد وعرض فيها أبو مروان جملة من الأحداث المتعلقة بدولة بني جهور في قرطبة وهي الدولة التي عاصرها أبو مروان من دول الطوائف وعاش في كنفها وكان له دور في جوانب السياسة والادارة فيها (٢) ، وفي سياق هذا العرض أورد ابن بسام ما يزيد على ثلاثين قطعة نثرية ضمن فصلين ؛ كان أولهما الذي أشرنا اليه في أعلاه وأما الثاني فقد أشار اليه ابن بسام تحت عنوان «فصول اقتضبتها من طويل كلامه» (٣) . والمتأمل في مجموع هذه الفصول يستطيع أن يدون الموضوعات التي دارت حولها وهي : الهجاء الذي شكل القسم الأكبر منها ؛ ثم المديح وما يدور حوله من معان كالتهنئة والعتاب والمراجعات ثم المعاني التي يمكن أن تندرج تحت المعاني الاجتماعية وقد رأيت أن أتناول هذه الصور على أساس الأغراض وليس على أساس التقسيمات المعروفة الأخرى للرسائل النثرية من سياسة وديوانية واجتماعية ودينية ؛ ذلك لأن هذه التقسيمات وما تحويه من دلالات متنوعة تتوفر جميعها أو قدر كبير منها ضمن الغرض الواحد ، كذلك فإن طابع الهجاء أو المديح أو غيره أظهر من طابع السياسة ، والملاحظة الأخيرة تتعلق بمنهج البحث أيضاً وتبدو في تناول الأغراض حيث قدم فيها الهجاء لأنه اكثر الأغراض التي تضمنتها الرسائل ، ثم المديح ثم الاغراض الأخرى إن وجدت : —

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة / ابن بسام ق١ م٢ ص٥٧٥—٦٠١ .
(٢) المصدر نفسه ق١ م٢ ص٦٠٢—٥٨٥
(٣) المصدر نفسه ق١ م٢ ص٥١٦—٦١٤ .

وهكذا فقد كان الهجاء اول الموضوعات التي نتناول الحديث عنها في السمات والخصائص التي امتاز بها هذا الغرض الأدبي التقليدي المعروف في الشعر والنثر وعلى اختلاف العصور والفترات الأدبية في المشرق والأندلس .

الهجاء

يشمل غرض الهجاء القدر الأوفر في مجموعة الرسائل والقطع النثرية التي عرضها ابن بسام في فصل مستقل وعنوان مميز حتى ليكاد يصل مجموع رسائل الهجاء إلى ما يزيد على أربع وعشرين رسالة من مجموع خمس وثلاثين رسالة في جميع الأغراض .

ومن النظرة الأولى في رسائل أبي مروان بصورة عامة يلاحظ الباحث أن اكثرها — وبصورة خاصة الهجاء — قد أغفل فيها ذكر أسماء المخاطبين ، ويشير إبن بسام إلى أنه هو الذي أغفل ذكر الأسماء حين وضع بدل كل اسم لفظة «فلان» فقال : (وكنّيت عن اكثر من به صرح وأعجمت باسم من به أعرب ، رغبة بكتابي عن الشين وبنفسي عن أن اكون أحد الهاجيين..) (١).

واذا كان ابن بسام قد اعتذر لنفسه عن إغفال الأسماء بعذر بيّنه ووضحه فإن ذلك لا يمنع أن يكون هناك سبب آخر أو أسباب أخرى دفعته إلى ترك التصريح بالأسماء مع انه ينقل نصاً وهو ملزم — أدبياً — بأن يدونه كما هو بقلم كاتبه دون زيادة أو نقص وذلك على نحو ما رآه أحد الباحثين حين قال :

(ولعل موقف ابن بسام هذا منه راجع إلى ظروفه الشخصية وخوفه فيما لو سكت عن نقده وتعليل قيمة اخباره ، ان تجلب نقمة الحكام عليه في زمن كانت الأوضاع مضطربة غير مستقرة وولاة الأمور برابرة أجلاف ، هذا إلى أن بن بسام كان مشرداً طريداً فهو محتاج إلى الحماية وتجنب كل ما من شأنه إثارة

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة / ابن بسام ق١ م٢ ص٥٨٦

النقمة ...) (١) . على ان هذا التعليل والتماس التبرير لابن بسام قد يصح بالنسبة لهجاء الامراء والوزراء ، ولكنه يكون محل نظر وحذر بالنسبة للأخرين من الكتاب والفقهاء والاصدقاء والأنداد الذين هجاهم ابن حيان بكلام قاسٍ شديد وكان على ابن بسام أن يدون أسماءهم ، وفضلاً عن ذلك فإن أبا مروان بن حيان قد ذكر ولو بقدر يسير وعدد محدود بعض المهجوين بأسمائهم مثل زاوي بن زيري الذي وصفه بشتى الأوصاف المشينة التي تحط من قدره وتظهر أعماله السيئة بصراحة وقسوة وشدة ؛ ولكن ذلك كله كان بعد سماع أبي مروان نبأ وفاة ابن زيري هذا ؛ مما يثير سؤالاً ملحاً وهو : هل كان الباقون الذين هجاهم أحياء : أم أن اكثرهم ممن كان قد توفي ثم أنشأ أبو مروان هجاءه لهم بعد ذلك على نحو ما فعل مع زاوي بن زيري ؟ (٢) وحين نتأمل في رسائل الهجاء عند ابي مروان نجده قد هجا أصنافاً من الناس منهم الامراء والوزراء ومنهم الكتاب والفقهاء ، وجاء هجاء الأمراء — ضمن ما ذكره ابن بسام — فيما يزيد على عشر رسائل تضمنت العديد من اوصاف القبح والزراية في أمير او وزير أو صاحب لأحدهما .

وتؤكد هذه المجموعة من رسائل الهجاء على ذكر صفات البخل بالمال ومنعه عن مستحقيه من الفقراء والمحتاجين وليس الأدباء والشعراء والكتاب فقط ، كما تشير الرسائل إلى ظاهرة عامة في تصرف اولئك الأمراء وهي التي تمثلت في فرض الضرائب الفادحة على الناس وإرهاقهم بكثرة الجباية وفداحة خطبها ، خاصة وانها تدفع إلى اعداء المسلمين لكي يحاربوهم بها ويتفوقوا عليهم بالعدة والعتاد.

يقول في واحدة من هذه الرسائل : (وكان فلان من البخل بالمال والكلف

---

(١) الشعر في ظل بني لمياء / محمد مجيد السعيد ص٦٥ .

(٢) ينظر : النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين : حازم عبدالله ص١٧٨/١٧٩ .

بالامساك والتقتير في الانفاق بمنزلة بذّ فيها ملوك عصره ، لم يرغب قط في صنيعة ولا سارع إلى حسنة ولا جاء بمعروف ، فما أعملت إلى حضرته مطيّة ولا عرج اليه اديب ولا شاعر ولا امتدحه ناظم ولا ناثر ، ولاحظي أحد منهم بطائل ...) (١) . وقد يضيف إلى هذه الصفات التي يظن القارىء أنه لا مزيد عليها صفة أخرى تتعلق بحياة الامير الشخصية ولكنها ايضا ذات صلة واضحة وأثر كبير في المجتمع وتحديد نظرته اليه فهو يصف هذا الأمير بأنه :

(رجلٌ مرخص في السماع صبٌّ بانشاد الأغزال المفتنة ، مسامح في النبيذ ظنين الخلوة عهرها ، حاط في بعض اللذة ...) (٢)

وعلى النهج نفسه يصف ابن حيان الوزراء الذين يبغضهم أو انهم كانوا يتصفون فعلاً بما وصفهم به مع تأكيده على قلة احسانهم وحماقة تصرفاتهم مما لا يؤهلهم للمناصب التي تقلدوها ، يقول في هذا : (ومات فلان الفتيّ العبام حجة الله في الرزق وغيظ الأنام فنهض بريئاً من كل خلّة جميلة ، تدل على فضيلة إلى عيّ غالب (عليه) ؛ وكان أخوه مثله في الأفن والجهالة ، وكلاهما ممن استهينت به خطة الوزارة بحملهما أسمها الخطير الأثير ، في غير تعلق بفضيلة في حديث ولا قديم ولا معرفة بشيء من التعاليم) (٣) .

وبمثل هذه الأوصاف والصفات أو ما يقرب منها يهجو أبو مروان بعض الذين يصاحبون الوزراء أو الأمراء ثم يجمعون المال وهم لا يترفعون عن مصاحبة الظالمين ومعاونتهم والتغطية على جرائمهم وأعمالهم تجاه مجتمعهم وأمتهم فيقول في أحد هؤلاء : —

(١) الذخيرة / ابن بسام ق١ م٢ ص٥٨٧/٥٨٨ .
(٢) المصدر نفسه ص٥٨٩
(٣) المصدر نفسه ص٥٩١ .

(... وكان مع ذلك مصاحباً للظلمة من أمراء الفتنة خواضاً في دولهم المدلهمة معنياً على مظالمهم الموبقة ، قد رزق الحظ في شأنه ، وبَعُدَ الصيت في جودة حوكه لأعماله ، فاكتسب وثري من المال محوطاً بمنبع الجاه، مغلولاً بوثيق من الشح لا يتسلط عليه حق ولا باطل ولا يمتريه مجتدٍ ولا سائل ..) (١) .

ونصل إلى المجموعة الأخرى من رسائل الهجاء ، وهي التي خاطب بها أقرانه من الكتاب المتفرغين للكتابة أو الذين جمعوا بينها وبين الوزارة على نحو ما كان شائعاً معروفاً في الأندلس وفي ظل حكام وملوك الطوائف بصورة خاصة .

وحين نقف على عموم المعاني الواردة في هذه الرسائل نجد صورة للكاتب المهجو في نظر أبي مروان ؛ تتسم بالعجز والقصور في التعبير وقلة الادراك للمعاني الرخيصة العالية التي تناسب الظروف التي تكتب فيها مع فقدان الموهبة الأدبية وانعدام الطبع السليم والذوق الأدبي الرفيع ؛

وتجدر الاشارة هنا إلى أن هذه الرسائل — فيما يبدو من ثنايا سطورها — قد خوطب بها عددٌ من الكتاب الذين وافتهم مناياهم إلى جانب مخاطبته آخرين أحياء يقول في واحدة منها : (وانكدر على اثره من الظلمة المسرفين المترفين من السمسرة إلى شرف المنزلة ، فلانٌ الكاتب الضعيف الرأي (والعقل) . وكان قد ركض في حلبة كتاب الرسائل ، وقُلّد جملة من تدبير الأعمال الجلائل ، من غير معرفة ولا قديم ابّوة ولا إحكام صناعة ، ومن استخدام مثله في شيء من العمل كانت حذرت حكماء الملل والفلاسفة الأول لاجتماع الخلال الذميمة فيه) (٢) .

---

(١) الذخيرة / ابن بسام ق١ م٢ ص٥٩٩ .

(٢) المصدر نفسه ص٥٨٨—٥٨٩ .

وإلى جانب المعاني المذكورة يؤكد أبو مروان في رسائل هجاء الكتاب على الجهل الفاضح مع توفر الرزق واتخاذ ذلك دليلاً على أن الأرزاق لا تعطى على العقل والحكمة وأنما الحكمة أرادها الله امتحاناً وابتلاء للناس على اختلاف عقولهم ومنازلهم فيقول مثلا في جزء من رسالة مصوراً هذه المعاني بايجاز وتركيز :

(ونعي الينا فلانٌ الدّغلُ ، غازله السّل كالافعوان الصلّ وكان أحد أعاجيب الدنيا في الفجور والخبث والزهو والكبر ، والعقوق والجرأة..) (١) .

ويمضي ابو مروان في هجائه لهذا الكاتب مشيراً إلى ممارسته الكتابة مع قصوره في ميدانها وعجزه عن القيام بما يلزم هذا الفن من مواهب ومعارف فيقول :

(...وكان إذا كتب مضطراً يضحك من تأمله ، له في ذلك نوادر محفوظة أمسى بها من حجج الله تعالى في الرزق المقسوم ، لو كانت الأرزاق مقسومة على الحجر لم يرزق...) (٢) .

ونختم هذه المجموعة برسائل هجائية وجهها أبو مروان إلى الفقهاء أو الى عدد منهم لعلّهم أولئك الذين ساءت علاقتهم معه أو كانت بينه وبينهم مشكلات خاصة أو عامة أثارت غيظه عليهم فراح يكيل لهم صفات التقصير والبعد عن جادة العلم ومنهج الفقه ، مع تفشي الجهل بينهم — في رأيه — إلى جانب حرصهم على المصالح المادية والأغراض الدنيوية الزائلة .

ولعلّ من أبرز مايلفت النظر في هذه الرسائل تأكيدها على النواحي الحسيّة بشكل بارز يزيد على ماعهد عنه في هذا المجال في الرسائل الأخرى ، يقول

(١) المصدر نفسه ص٥٩٣ .

(٢) الذخيرة / ابن بسا ق١م٢ ص٥٩٢

في إحدى هذه الرسائل : (من رجل غبر دهره ، عُطُلاً لاينظر في شيء من التعاليم إلى أن فتح الله عليه درس هذه المسائل الفقهية ، فركض في حلبة الفقهاء المشاورين ، وقدّم لعلو السنّ لا لعلو الدرجة ، وكان في ذاته كريه الطلعة، باذّ الهيئة ، درن الكسوة ، هزيل الدابّة ، يمتهن نفسه في خدمة أهله ، مما يتنزه عنه كثير من العامة ، تقتحمه عيون الناس ويحصون نوادره وكان موصوفاً بالنهم ، على ضؤولة جسمه وانهداد قوته وملازمة الذّرب لمعدته ، وطلبه لعلاجها) (١) .

وليس من شك في أن هذه الرسالة تنم عن علاقة سيئة جداً بين أبي مروان والمهجو الذي يمكن أن يعدّ رمزاً لحسّاده ومبغضيه ، كما يستطيع الباحث المتأمل أن يفهم من (هذه النصوص تصويرها للعلاقة السيئة بين الكتاب والحسد الذي يسودهم والعداوة التي تحكم علاقاتهم حتى تجعلهم يتخاطبون بهذه الصفات ولا يتورع أيٌّ منهم عن رمي مخالفيه بكل نقيصة وعيب..)(٢) . وهي ظاهرة معروفة في عموم المتأدبين في العصور المختلفة ، شعراء او كتاباً بسبب ماينتج عن نظمهم الشعر او كتابتهم النثر والتنافس الذي يحصل بينهم في الأحوال والظروف المختلفة .

رسائل المديح والتهنئة

لعلّ هذا العنوان مما يوحي بأن هناك موضوعين اثنين وليس موضوعاً واحداً وهو كذلك في الدراسة المفصلة في الأدب بعامة والشعر منه بخاصة ولكن رسائل أبي مروان في هذين الغرضين تكاد تعبر عن معاني متقاربة وقد تتداخل أحياناً بسبب الصلة الوثيقة بين الموضوعين فمن يهنيء ؛ لابد أن يمدح ،يضاف إلى هذا قلة الصور مما سوغ لنا النظر فيهما سوية وتحت موضوع واحد رئيس

(١) المصدر نفسه ق١م٢ ص٥٩٨

(٢) النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين / حازم عبدالله ص١٨٩ .

واذا جئنا إلى هذه المجموعة من الرسائل وجدنا ابن حيان — من خلالها — مادحاً مثنياً على نوعين من الرجال .

أولهما يندرج في الرجال المسؤولين من الأمراء وذوي الجاه والسلطان وبخاصة مايتعلق بهم في مناسبات انتصاراتهم على أعدائهم المغيرين أو مخالفيهم المتربصين ؛ ويتقدم هذه المجموعة رسالة موجزة وضعها ابن بسام تحت عنوان (فصل له) كعادته في إيراد النماذج النثرية لابن حيّان وغيره وفي هذا الفصل يخاطب أبو مروان أحد الأمراء دون أن يذكر اسمه أو المناسبة التي دعت إلى كتابة الفصل أو الدواعي التي دفعته إلى مخاطبة ذلك الأمير ولكن القاريء للرسالة يقف فيها على جملة من الصفات الحميدة التي يرى أن الممدوح يتصف بها كالتواضع والخضوع لله عز وجل ، فيقول : (يامولاي وسيدي قحطانيّ زمانه وغلاب أقرانه المتوقّي في ملكه مَنْ ضرّ اعتماده عليه ، ومن هنأه الله جليل الفتح له وعلى رغبته به ولا ألهاه طمحان السرور بجلالته عن تحقيق التواضع لمولاه ، وإخلاص الخشوع لوجهه ، والعياذ بعصمته ، من إقراف ماجرّ مثله على مقترفه، وسؤاله تسويفه إيّاه ، بالنخل له والفوز بجميل عافيته بمنّه) (١) . ويفهم من هذه الرسالة أولاً أنها كتبت للتهنئة بمناسبة انتصار كما يتضح من الرسالة أيضا أنها تجمع بين المدح والتهنئة وكأنهما شيء واحد وقد يأتي أبو مروان بالمديح والتهنئة في رسالة أخرى ممزوجين بمعاني أخرى كأن يضيف اليهما كبت العدو بذلك النصر واندحاره على الرغم من جمعه الجيوش وحشده وسائل القوة من عدة وعتاد ولكن هذه الرسالة تمتاز عن سابقتها بذكر اسم الذي كتبتْ له من قبل ابن بسام في العنوان الذي وضعه لها وهو :

(١) ابن بسام / الذخيرة ق١م٢ ص٥٧٨

(وله من رفعة خاطب بها ابن عبّاد بظهوره على ابن ذي النون) : يقول فيه :

(لو أن فتحاً اعتلى عن تهنئة ممنوحة بارتفاع قدر أو جلالة صنع أو فرط انتقام مستأصل أو تنزّل حكم من الرحمن فاصل ؛ لكان فتحه هذا لك على عدوّ أسود الكبد، مظاهر البغي على الحسد، طال والله مااستحيته لامن خجل) (١)

ثم يمضي ابن حيان في رسالته مؤكداً على أمرين اثنين ، هما : كرم خلق ابن عباد ورجاحة عقله وسعة صدره مقابل صفات خصمه السيئة المتمثلة بالجحود والنكران وجفاء الطبع وقبح التصرف وسوء الخلق والبعد عن الحكمة والتعقل في تصرفاته . ويذكر ابن بسام فصلاً آخر في الرسالة نفسها أو مايتصل بها ، يضمنه معاني عديدة لاتكاد تخرج عن معاني المديح التي أشرنا اليها فيما سبق .

وهكذا تدور الرسائل الموجهة إلى الأمراء والوزراء وذوي الجاه والسلطان في المعاني المعروفة التي تناسب مراكزهم وتنسجم مع أساليب الخطاب التي توجه اليهم مما يكاد يشكل معجماً لفظياً وعبارات مشتركة تصدر عن معاني المديح والتهنئة في رسائل أبي مروان النثرية وكتابته التاريخية أيضاً .

ونصل الى النوع الثاني من رسائل المديح والتهنئة ، وهي التي توجه بها أبو مروان إلى الأصدقاء والأنداد وهي تطفح بمعاني المودة والاخاء والصدق والوفاء وما يتصل بهذا من المعاني التي تقوم عليها العلاقات الأجتماعية بين الناس عامة والأصدقاء والأصحاب الأخلاء خاصة ، مع مايترتب على ذلك من مشكلات وما تقتضيه من وسائل العلاج الناجح للأبقاء على المودة والأخاء دائمين مستمرين قائمين على الأحترام والتقدير .

ومما يلاحظ في هذه الرسائل ايضاً ذكر ابن حيان أسماء عديدين من المخاطبين بها وذلك على نحو مانقرأ في الرسالة التي كتبها إلى الوزير أبي

(١) الذخيرة / ابن بسام ق١م٢ ص٥٧٨

القاسم بن عبد الغفور ونص ابن بسام على الاسم في التقديم لها، يقول ابن بسام :

وله من أخرى خاطب بهاذا الوزارتين أبا القاسم ابن عبد الغفور :

(لا أبثك من ذكر حالي لانثلال عرشي ، وانفلال غربي ، بما أخشى تناسيك له ، أو ونيك في المعونة عليه ، فأنت طودي من بين هذه الهضاب ، ومصدق ظني فيما ينوب من طلاب الموحي بأشجاني إلى جنان المالك اللباب ، نهايـــة الامال الرغاب ، أقرضك الله بغير حساب..) (١) .

ولا يخفى أن الرسالة — كما يفهم من التأمل في عباراتها — تشير إلى شكوى أبي مروان من تغير حاله مما دفعه إلى طلب المعونة من صديقه الحميم دون أن يرى في ذلك غضاضة ، معتمداً في ذلك على سمو العلاقة بينهما ومتانة الأخوة القائمة على المودة والأحترام ؛ ومع ذلك فإن رسائل أخرى تؤكد بصورة أوضح وبتفصيل أوفى على أخلاق الممدوح التي تأتي في مقدمتها معاني الأخوة الصادقة والوفاء والتقدير ، وهذا مانقراؤه في رسالة تهنئة بخلاص من نكبه — كما يقول ابن بسام :

(كتابي عن نفس قد أشرق وجه صاحبها ، وهبّت رياح ارتياحها ،وسرى نفس السرور فيها ، بما طلع علينا من البشائر بخلاصك ؛ وجميل انفكاكك ومناصلك ، على حين بلغت القلوب الحناجر ، وكادت موارد الحزن لاتكون لها مصادر ، فإن الأيام عمّت فيك بإساءتها إليك كل منتسب إلى فضل) (٢)

وهكذا لو استعرضنا نماذج أخرى من الرسائل الواردة ضمن هذا الموضوع من نثر أبي مروان فإننا لانكاد نفقد فيها روح الأخلاص والمودة والحب والوفاء اتجاه الأصدقاء والأحبة من أدباء وغيرهم ويكاد حماس أبي مروان يبدو واحداً

(١) المصدر نفسه ق١م٢ ص٥٨٢

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة / ابن بسام ق١م٢ ص٥٨٤

في أكثرها مع التأكيد على صفات معروفة بينها لاتخرج عن الصورة التي يتخيلها كل صديق عن صديقه متجاوزاً عن الأخطاء . والهنات التي لايخلو منها إنسان .

وبالاضافة إلى هذا كله فإن هذه الرسائل تشكل جزءاً من الصورة العامة للرسائل النثرية — في المديح والتهنئة — بالنسبة لنثر القرن الخامس ، ويمكن الوقوف على السمات العامة — على صعيد المعاني — لرسائل هذا القرن بالرجوع الى الفصل المستقل الذي عقدته لتتبع ملامح هذه الرسائل وسماتها ومدى تعبيرها عن المجتمع الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين ؛ مما شكلت هذه الرسائل جزءاً منها وصورة من صورها. وذلك في دراسة مفصلة لنثر عصر الطوائف والمرابطين (١) .

رسائل العتاب والمراجعات

يشكل العتاب جانباً مهماً في رسائل أبي مروان بن حيّان التي وردت في الذخيرة ويبدو للمتأمل فيها أن أبا مروان يجنح في الغالب إلى الرقة في عتابه واللين في خطابه ؛ فيذكر أسباب المودة ووجوب الحرص عليها والعمل على استمرارها قوية متصلة مستمرة لاتتأثر بتقلّب الظروف وتغير الأحوال .

وفي مقدّمة مايطالعنا في هذا النوع ؛ الرسالة التي كتبها أبو مروان إلى صديقه أبي القاسم بن عبد الغفور ويفهم منها أن الأخير قد أخذ منه سفراً من كتابه ولم يرجعه إليه فلما استبطأه أبو مروان أو طالبه به أكثر من مرة حرصاً عليه من الضياع لجأ إلى كتابة هذه الرسالة تذكيراً ممزوجاً بالعتاب :

---

(٢) ينظر : النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين / حازم عبدالله الفصل الثالث / الرسائل الأخوانية–موضوع : رسائل المديح والمودة
د الفصل الرابع / الرسائل الديوانية – موضوع : رسائل المديح والتودد
ص ١٦١–١٦٤/ ص٢٢٢–٢٢٣/ ورسائل التهاني والتعازي ص٢٣٠–٢٣٥ .

(ليس يخفى عليك مكان هذه الصحف المستملاة من الصدور ، المستعراة من النظير ، من أنفس مؤلفيها وقلوب مصنفيها ، فأبثك شأن الأهتمام بهـا وناولتك يوم التقينا السُّفير الحقير ،ختام تاريخي المهجور، سائلاً عُلاك تصفحه كيما تكذب مازوّر به عليّ ، ولا محالة أن قد فعلت ورددتْ وجهدت ، واستأخر صرفه إليّ، فحملتُ ذلك على نسيانك لتقسّم الأشغال لخاطرك ، ولمناخ القلق بي...) (١) .

وهذه السطور — على قلتها — تفيد جملة أمور تتعلق بأبي مروان ؛ منها اضطرابه وقلقه على جزء من مؤلفاته ولكنه بعد أن يؤكد اهميتها يعود الى التقليل من شأنها بتواضع غريب غير متوقع .

ومنها أن الكتاب المشار اليه قد أثار ضجة واتهاماً له مما دفعه إلى التماس الشهود على براءته بخلّو مؤلفه مما اتهم به فقدمه أو قدم جزءاً منه الى أديب معروف ليقول كلمته فيه واذا وصلنا إلى هذا الهدف استطعنا أن نفهم بصورة أوضح ميل أبي مروان إلى أسلوب اللين والموادعة في العتاب دون أسلوب الشدة والجفاء فيه .

وقد يكون العتاب في نوع آخر يعالج أبو مروان فيه مشكلة شخصية أو يعرضها طالباً العون على حلّها معاتباً على موقف سلبّي من رجل يسميه ابن بسام «صاحب الصلاة» ولعلّه القاضي الذي يفضّ المنازعات بين الخصوم وقـد كانت له في الأندلس سطوة وسلطان وكلمة مسموعة وقرار لايرد ولا يناقش يقول في أوله : (ياسيدي المعتلي بسموّ رتبته ، المعتدي باعتداء بصيرته) ومن أصحبه الله التوفيق وأقامه على سواء الطريق ونجاه من معتبة الصديق..)(٢).

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة / ابن بسام ق١م٢ ص٥٨٦ .

(٢) المصدر نفسه ق١م٢ ص٥٨٠

وبعد هذه المقدمة الوجيزة يدخل أبو مروان في الموضوع عارضاً مشكلته ذاكراً بعض جوانبها وآثار ذلك في حياته ونفسه فيقول :

(إذ علمت عظيم محنتي بأمتي الفاجرة ، التي فلت عزبي وفرت كبدي ، ونظمت أشتات المصائب في سلكي ، خبلا للبال وثلماً للمال ، الذي لاتنام العين على حزازته وتنام على الأثكال..) (١) .

ويشرح في تفاصيل رسالته موقف صاحب الصلاة ابن زياد — كما يسميه ابن بسام — وكيف أنه لم يقف بجانبه أو بجانب الحق ولم ينصفه في تلك الأمة التي غدرت به مع جارتيها وتآمرن عليه وتسببن في تكدير صفو حياته وكيف أن صاحب الصلاة قد عمل على إطلاق سراحهما بعد أن صدر أمر بسجنهما عقاباً على الغدر والخيانة .

ولكن أبا مروان لم يصرح بالجرم المرتكب ضده من قبل أمته وجاراتها، كما لم يشتد أو يقس على صاحب الصلاة على الرغم من أن الأخير قد تسبب في ضياع الحق ورفع القصاص عن المقصرين كما يخبرنا هو في رسالته هذه وانما نفهم من سطورها الأخيرة أن الجرم ربما يكون سرقة متاع أو غيره يقول في ذلك : (..وكان الظنُّ لتشيعي فيك أن تأخذ بحظك من مشاركتي فتنكبتها وتجاوزت الى قطع آصرتي وتذكية لوعتي ، بقيامك دون الخبيثين النطفتين ابنتي قباط الحناط ، جارتي جنبي ومسببتي كربي ، اللهجتين سراً وعلانية بأذاتي وامداد أمتي الفاجرة خليلتهما في غيّها لكون بيتهما دبرٌ بيتي في حائط يليهما ، فلم تزل تناولهما منه ماتسلله في الفلتات والخرجات السيئات حتى استأصلت متاع البيت..) (٢) . وهكذا يلمح أبو مروان الى طبيعة الجرم

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة / ابن بسام ق١م٢ ص٥٨٠/٥٨٧ .

(٢) المصدر نفسه ق١م٢ ص٥٨١ .

المرتكب عنده من قبل أمته وجارتيها وان كان ذلك لايمنع من وجود أمور أخرى لاحظها أبو مروان مما دفعه الى وصفها بالفاجرة وقد ترك الأمر عاماً في التعبير دون أن يلجأ الى تخصيص أو تفصيل .

ونصل إلى رسائل المراجعات بين أبي مروان وآخرين من أنداده الكتاب وأصدقائه الأدباء وهي لاتبعد كثيراً في معانيها عن معاني رسائل العتاب من حيث احتواؤها على صفات المودة والوفاء والافصاح عن طبيعة العلاقات التي تربط بين الأثنين وما يقدمه كل منهما لصاحبه من دلائل تلك المودة .

ونعرض فيما يلي لصورتين : رسالة وجوابها بين أبي مروان وصديق له يسميه أبا بكر ابن زيدون ويبدو أن الأخير كان قد أرسل إلى أبي مروان رسالة وضعها أبن بسام تحت عنوان : (وخاطبهُ الوزير الأجل أبو بكر بن زيدون برقعة يقول فيها..) (١) دون الأشارة الى شيء من مضمون هذه الرسالة أو بعض معانيها أو سبب كتابتها .

ولكن الأمعان في ثنايا الرسالة يوقفنا على أن أبا بكر هذا ربما يكون قد قدم لابي مروان هدية أو خدمة أو عوناً في أمر ما اذْ يؤكد على أن كل ماقدمه له لايرقى الي قدره وأنه يستحق منه أكثر من ذلك بكثير لمكانته عنده وصفاته التي لاتسامى بل ان مايفهم من الرسالة أن العون المقدّم لأبي مروان كان بطيها أو مرفقابها يقول : (... وللذي أسكن إليه من حسن قبولك وجميل تأويلك ، أقابل بالحقير وأواجه بالتافه اليسير ، ويعلم الله تعالى لوتحفتك بهبة عمري،مارأيت ذلك كفاءً لقدرك ولا وفاء ببرك فكيف مادونه ؟ فلك المنزلة التي لاتسامى والجلالة التي لاتوازي ، وما شيء وإن جلَّ إلا ومحتقرٌ لك ، مستصغرٌ عند محلك ويصل مع موصل كتابي هذا ماثبت ذكره في المدرجة طيه : وأنت بمعاليك

(١) الذخيرة / ابن بسام ق١م٢ ص٥٨٢ .

تتفضل بقبوله ، وتصل أجمل صلة بالتغاضي عن وقاحته والأستجازة لنزارته مقتضياً بذلك شكري وحمدي ، ومستبدأً بجميع ماعندي) (١) .

ويتضح من ثنايا سطور الرسالة أيضاً نفس الأعتذار عن قلة العون وانه دون مايستحق . مع انه قد استنفد كل مايملك ابن زيدون مع رجاء التفضل بالقبول وقد كان افتتاح الرسالة مبدوءاً برجاء القبول مع الأمل في خلق أبي مروان ورحابة صدره وسمو نفسه ، كما دلّ هذا الافتتاح في الوقت نفسه على أن الرسالة ربما كانت أطول من هذا وان ابن بسام — على طريقته في عرض النصوص — قد اجتزأ هذا القدر ورآه مناسباً فيها ليذكر بعدها رسالة أبي مروان الجوابية بقدر أكبر وتفصيل أوفى نظراً لأن أبا مروان الشخصية الرئيسة التي يترجم لها في ذلك الفصل ، وانما كان ذكر رسالة أبي بكر بن زيدون تمهيداً لذكر رسالة أبي مروان وتأتي رسالة أبي مروان جواباً على رسالة أبي بكر حاوية معاني الشكر والامتنان والأعراب عن التقدير والأحترام لشخص المهدي بما أمتاز به من سرعة الأجابة والنهوض للعون وبذل كل مايستطيع وتبدأ الرسالة بعد عنوان ابن بسام : فراجعه ابن حيان برقعة يقول فيها :

(ان لفجآت المسرات الباغتة لآمال النفوس الحائمة صدمات تذهل الجنان وتعقل اللسان ،فمن فرح النفس مايقتل ومن باهر الصنع مايذهل ؛ ولا كمثل مافاجأني من فضلك المبتدر ميقاته المقتفي المزيد فيه على وفاق من إنقاص الأزودة وخمود المصابيح المعطلة ..) (٢) .

ومما يلفت النظر في السطور التالية من الرسالة والعبارة الأخيرة مما ورد في النص المذكور نفهم أن ماقدمه أبو بكر بن زيدون ربما يكون زاداً وطعاماً

(١) المصدر نفسه ق١م٢ ص٥٨٢ .
(٢) الذخيرة / ابن بسام / ق١م٢ ص٥٨٣ .

في وقت كان أبو مروان محتاجاً إليه حاجة ماسة ونفهم كذلك أن هذا ربما كان عادة لأبي بكر اعتادها في تقديم العون إلى أبي مروان بين فترة وأخرى، يقول أبو مروان : (ولم يشغلك عن جودك شاغلٌ حتى قضيت نذرك فيَّ لأول وقته ، ولم ترض بعادتك المتكلفة لي بشأن الدُّهن ، حتى تحملت عني ثقل القوت فلم أكد أشيم برق الزيت حتى نلتُ ودقه حاشد الأحمال البُر التي استحقبت أعداله [أوطابه] فأسالت غرّته وطرقني قطار هديتك الفاجئة غداةً أصبحت فيها منفضاً من الزاد..) (١) قد لايستبعد الباحث أن يكون أبو مروان قد كنى بهذه التعابير الواضحة الصريحة عن أمور أخرى تضمنتها منحة أبي بكر ومعونته ولكنها على كل حال دلالة واضحة على الصلة القوية بين الأثنين وحاجة أبي مروان التي جعلته على استعداد لقبول العون من صديقه الوفي المخلص الذي ربما كان قد عوّده على ذلك في كل مناسبة تدعو الحاجة فيها إلى المبادرة بتقديم العون بطيب نفس ورضى . يؤكد هذا ماتضمنته السطور الباقية من الرسالة من التعبير عن عواطف أبي مروان تجاه صديقه وصاحب الفضل عليه وما نطقت به الفاظه من ألوان الشكر وأساليب الأمتنان مع نفحات التقدير والأحترام والأعتراف بالفضل لأهل الفضل ومن ذلك قوله : (... أكسبت فرحي دهشاً وأحالت بياني بلهاً ، حتى نوولت كتابك الكريم ونظرت في لالئه التوم فيالي به من اهتزاز لذكرك وارتياح لطولك فجوزيتَ أوفى جزاء المنعمين وأوفر قرض المحسنين بما أرحت من فكري بكشفك عني في أديم يوم همّ عام فعمت أوعيتي وافهقت آنيتي مع أنك قتلت شكري فلا فضل فيه لمقابلة معروفك إلا امحاض الدعاء لك...) (٢) ثم يختم أبو مروان رسالته الجوابيه هذه بالدعاء لصاحب الكرم والمبادرة الي تقديم العون أن يديم الله

(١) المصدر نفسه ص٥٨٣ .

(٢) المصدر نفسه ص٥٨٣-٥٨٤ .

عليه نعمته ويمده بعونه وتوفيقه ويوثق صلته بمن يعينه على ذلك: (..في حراسة مهجتك ودوام نعمتك واستبصار الملك الأعلى عميد الورى مستكميك في حسن رأيه فيك ، أعاذك الله من عين الكمال، ووقاك طوارق الأيام والليال وحفظ على زماننا مافيك من كَرم انحلال وأنهضك بما التزمته من أحناث من أقسم أن الجود في عصرنا عدم لاينال بمنّه ويُمنه..) (١) .

سمات وخصائص فنية

نحاول — بتوفيق الله عن وجل — في الصفحات التالية عرض جملة من السمات والخصائص الفنية التي تبدو من النظر في مجموع رسائل أبي مروان الواردة في الذخيرة بعامة والنصوص التي أوردناها في عرض معاني نثر أبي مروان بخاصة .

وتجدر الأشارة ألى أن هذه السمات لاتبعد كثيراً عن سمات النثر الأندلسي في القرن الخامس من حيث الخطوط العامة والقواعد الأولى التي اعتمدت عليها تلك السمات وفي مقدمتها : —

السهولة والوضوح : ونقصد بها التعبير البعيد عن الغموض والأبهام وإيراد الألفاظ الغريبة أو المخالفة للقياس الصرفي أو النحوي أو قواعد التعبير اللغوي

ولابد أن نذكر هنا أن هذه الظاهرة في نثر أبي مروان الأدبي لاتقتصر على هذا النوع من النثر فحسب وانما نراها ماثلة في النثر التاريخي وذلك ماوقف عليه عدد من الباحثين في التاريخ الأندلسي من ذوي المعرفة بالأدب وأساليب التعبير يقول أحدهم في وصف أسلوب أبي مروان بأنه : (أسلوب ناصع لايهبط إلى الركاكة التي تثير السخط . ولا يقع كذلك في التصنع والاسراف

---

(١) المصدر نفسه ص٥٨٤ .

في قعاقع الألفاظ ـ كما نجد عند ابن خاقان مثلاً ـ وهو رغم التزامه السهولة لايهمل جانب الجمال في أسلوبه...) (١) .

فهو اذن ـ كما يرى الباحث ـ أسلوب يجنح الى الأعتدال والقصد في التعبير مع وضوح وسهولة وبعد عن الضعف والتفكك ؛ وهذا واضح فعلاً من عبارات أبي مروان التي تتسم بسمة السهولة والوضوح مما يعبر عن أبرز صفات الأندلسيين بصورة عامة بما عرف عنهم من إيثار للوضوح والبعد عن التعقيد لافي الكتابة والعلم والثقافة فقط وانما في الحياة الأجتماعية والسلوك العام أيضاً ، وهكذا فقد رأى باحث آخر ـ من خلال تمثيل نثر أبي مروان لجانب من حياة الأندلسيين ـ أن ابا مروان (خيرُ من يمثل النثر الأندلسي لاعتماده على نفسه في حوك العبارة وبنائها على الحدّة والعنف..) (٢) . والأشارة الأخيرة تعبر عن نفسية أبي مروان وطبعه حين يتحامل أو يهجو أو يكون متأثراً من شخصية معينة بفعلٍ صدر عنها .

ولكن أسلوبه في هذه السمة لم يخرج عن الوضوح ولم يبتعد عن نهج السهولة دون أن يأتي ساذجاً في معانيه أو قاصراً في تأليف أفكاره ضمن المعاني الرئيسة التي يكون بصدد التعبير عنها ؛ يقول باحث آخر فيما لاحظه على نثر أبي مروان من الخصائص : (يحفل نثر ابن حيان بالصور التي تبهر النظر ترد بسيطة بلا افتعال ولا تصنع بلاغي ولا قعقعة رنانه...) (٣) .

وهكذا تبدو سمة كتابة أبي مروان في السهولة والوضوح في مقدمة السمات التي امتاز بها نثره وإلى جانبها سمة الأتزان والتوسط والأستقلال والتمايز عن

---

(١) تاريخ الفكر الأندلسي / آنخل جنثالث بالنثيا ص٢١١

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي / عصر سيادة قرطبة : إحسان عباس ص٣٣٣ .

(٣) مقدمة تحقيق جزء من المقتبس لا بن حيان / د. محمود علي مكي ص١٠٥ .

كتاب وناثري عصره في المشرق الأندلسي ، خاصة أولئك الذين جمعوا بين علمي التاريخ والأدب وبرعوا فيهما بأسلوب أدبي معبر جميل .

على أن سمة الوضوح والسهولة مع الأتزان تبدو في أغراض المديح والتهنئة أكثر منها في غرض الهجاء ، حتى اننا نستطيع القول بأن أبا مروان يجنح في أسلوبه الى الأغراب والعمق حين يكون على درجة كبيرة من الانفعال والتأثر وقد يبدو هذا بدهياً بالنسبة للمواقف التي تحتاج إلى الشدة والصرامة وقوة العبارة مما يتطلب الفاظاً غير الفاظ المديح والتهنئة وهذه سمة ربما وجدها الباحث لدى آخرين من كتاب وشعراء في الأحوال المختلفة التي يكون كل مقام فيها محتاجاً إلى مقال يناسبه معنى ومبنى :

ولكي نبين الفرق بين الحالتين بصورة أوضح عند أبي مروان نعرض صورتين من نثره ؛ الأولى رسالة كتبها إلى أحد العمال بعد خلاص الأخير من نكبة وقد وردت مقدمتها في عرض النماذج في الصفحات السابقة يقول في القسم الأخير منها :

(... فأنت أعلم بمجاري الأمور ومعاير الدهور ، وأهدى الى التسليم للمقدور ، فلم تورد الأيام عليك من حوادثها المهول النكر ولا وردت عليك بالفتكة البكر) (١) ثم نأتي الى الصورة الثانية لنرى هذا الأسلوب يتغير حين اختلف الغرض وتحوّل الكاتب من نفسية هادئة لينية مطمئنة راضية إلى نفسية حانقة منفعلة لاترى سوى الألفاظ الشديدة والعبارات القاسية التي تصل إلى حدّ الأقذاع وتدل على درجة كبيرة من التأثر والأنفعال ؛ يقول أبو مروان في أحدهم : —

(١) الذخيرة / إبن بسام / ق١م٢ ص٥٨٤/٥٨٥ .

(...وكان حجة الله في القسم ، ومحنته لذوي الفهم اذ كان من الأمية العاتية وضمور الأصل ونذالة الفرع ولؤم الأطراف ودخلة الأعراق على ثبج عظيم وبمكان مقعد مقيم ، وعفو الله لايبعد عمن جاءه بقلب سليم)(١) .

وهذه الصورة الأخرى تبدو الوعورة فيها أظهر وأجلى بما يتناسب وحالة الكاتب النفسية : (ومضى فلانٌ فأدرج في جننه غير فقيد ، لم تبك عليه غير نفسه اذْ لم يكن لغيره نصيب في خيره لأنه كان جهم المحيا، باسر اللقاء ،مشنّاً إلى الورى ، شكس الجبلة ...)

التوسط بين الايجاز والاطناب :

ويبدو أسلوب أبي مروان بن حيان في نثره وسطاً كذلك بين الأيجاز والأطناب أو قل إنه يسير فيه على نهج السهولة والوضوح وذلك على وفق الغرض والموضوع والحالة النفسية والظرف الذي يجتازه دون أن يقع في استطرادات تبعد عن الموضوع الأساس الذي يعقد الرسالة من أجله ويبدأ كلامه به .

ويصوّر لنا أبو مروان نفسه عنوان هذه السمة كما يراها ويرى أنها سمة حسنة ميزه جيدة في الكتابة وذلك حين يعرض رأيه في أسلوب صديقه ومعاصره ابن شهيد – أبي عامر – قائلاً : (يبلغ المعنى ولا يطيل سفر الكلام...) (٢) .

ولا شك أن هذا الأستحسان منه للاعتدال في التعبير مع عدم الأخلال بالمعنى– يدل على تفضيله بهذا النهج واتخاذه طابعاً مميزاً لكتابته هو ، يقول أحد الباحثين في حديثه عن أسلوبه:(إن أبن حيان سيّال الأسلوب ولكنه مع ذلك

(١) المصدر نفسه / ق١م٢ ص٥٩٩ .

(٢) الذخيرة / ق١م٢ ، ص١٩٩ وينظر مقدمة تحقيق المقتبس / مكي ص١٠٥ .

لايتميز في الأطناب والقعقعة اللفظية كما فعل غيره من أصحاب الروايات...) (١)

وهكذا إذا رجعنا إلى رسائل أبي مروان النثرية وجدنا أنه يطيل ويوجز حسب الأغراض فإذا كان مادحاً مهنئاً أو معاتباً برقة وهدوء فإنه يطيل الكلام ويسترسل في الأوصاف التي تتقارب معانيها وتختلف ألفاظها ، وتكاد الرسائل التي أوردها ابن بسام تحت عنوان «فصول من كلامه في أوصاف شتى» تميل الي الطول نسبياً وخاصة تلك الرسالة التي وضعها ابن بسام تحت عنوان « وله من رقعة»(٢)وقد أوردها بعد ايراد . جزء من مقدمة كتاب أبي مروان في التاريخ . واستغرقت هذه الرقعة فيما نقله منها ابن بسام ثلاث صفحات وهي أطول رسالة أو جزء من رسالة ذكرها ابن بسام من رسائل أبي مروان (٣) كذلك نجده يطيل حين يتحدث عن وقائع التاريخ والسياسة ويسترسل بالقدر الذي تحتاج اليه الأحداث والأشخاص ومن ذلك حديثه عن دولة بني جهور(٤) وقد أشار ابن بسام في مطلعها أنها فصول من كلامه.. ولكن هذه السمة تتغير عندما ننتقل الي رسائل أبي مروان في الهجاء والفخر لأعدائه مما يحتاج إلى عبارات قصيرة ولكنها شديدة قوية قد يتسم كثيرٌ منها بالخشونة والجفاء حتى تكاد تصل إلى حد السوء والفحش وأبرز ماتبدو هذه السمة في مجموعة الرسائل التي وضعها ابن بسام تحت عنوان (وهذه فصول مقتضبة من طويل كلامه...) (٥) .

---

(١) تاريخ الفكر الأندلسي / بالنثيا ص٢١١ .

(٢) ينظر الذخيرة / ابن بسام ق١م٢ ص٥٧٥-٥٨٥

(٣) المصدر نفسه ق١م٢ ص٥٧٦-٥٧٨

(٤) المصدر نفسه ق١م٢ ص ٦٠٢/٦١١

(٥) المصدر نفسه ق١م٢ ص٥٨٦

واذا امعنا النظر في نماذج القسمين اللذين أشرنا إليهما آنفاً وجدنا هـذه السمة واضحة بنية فيها ويكفي — كما نرى — أن نورد صورتين مثلاً على هذا: يقول أبو مروان في رسالة وديّة ربما كانت تهنئة وتوداً لواحد من أصحابه المخلصين : (حتى ابتعثك امتعاضك تحت صدى العزيمة ومهل الرؤية وصواب التدبير وتقدم الاستخارة مستظهراً منهنّ بعلة ضربت عليه الأسداد وباعدت عن السداد وابتعثك تعالى للسمو إليه لما دنا منك قبل اكتمالك في الأحتشاد وانتهائك في الأعداد..) (١) . فهذه الجمل قد بدأت بجملة طويلة نسبياً ثم تلتها جمل قصارٌ ثم جاءت جملة طويلة تكاد تستوعب سطراً كاملاً، في حين نكاد نجد مايخالف هذا في رسائل الهجاء بصورة عامة حيث تتوارد الجمل القصيرة ذات المعاني المحددة الموجزة ؛ يقول في إحداها: (وكان فلانٌ غليظ الطبع خشن الجانب وخيم الخيم ، جهم اللقاء ، يعتريه ضجرٌ يخل به ، قلما ينجو الخصم منه في بادرة ، له في ذلك أخبار شائعة ..) (٢) .

ويمكن تعليل هذا التباين بقصد أبي مروان إلى الأمعان في التأثير وليكون أقرب الى الأنسجام مع حالته النفسية التي غالباً ما تكون في الهجاء مضطربة هائجة منفعلة متأثرة ، في حين تبدو في المديح والتهنئة مطمئنة هادئة مما يمكن أبا مروان أن يعود إلى نهجه في الأعتدال والتوسط وتوخي التعبير المناسب بقدر لا يثقل على القاريء فيضيعه في استطراد لا حاجة أليه ولا يوجز فيترك القاريء أو السامع في لهفة وترقب لأتمام المعنى والوصول الى نهاية الأفكار التي يعرضها ، ويمكن أن ينسحب هذا على ألوان كتابته الأخرى .

ولعلّ الكتابة التاريخية عند أبي مروان هي التي تمثل هذا النهج بالدرجة الأولى مما جعله يمثل المكانة الرفيعة في المؤرخين على صعيد المشرق والأندلس

ويوصف بالدقة والأصابة وحسن العرض والتقصي لثنايا الأخبار والأحداث التي يعرض لها ولو أن التاريخ الذي تركه قد تم نشره وتحقيقه لتوفر للمكتبة الاندلسية التاريخية والأدبية ثروة علمية هامة إلى جانب كونها تراثاً أدبياً يمثل شخصية لامعة من شخصيات القرن الخامس للهجرة .

السجع والازدواج :

لقد كان من أبرز سمات النثر الاندلسي في عصر الطوائف والمرابطين السجع والأزدواج اللذان يردان كثيراً في الرسائل النثرية ويحرص عليهما الكتاب الأندلسيون في عدد وافر من الأغراض التي ضمنوها رسائلهم ، حتى كادت هذه السمة تبدو طابعاً عاماً وسمة مميزة (١) .

ولهذا فقد كان صدى هذه السمة واثرها واضحاً في كتابة أبي مروان الأدبية بخاصة والتاريخية بعامة ، فإذا عرضنا لصور النثر عند أبي مروان وجدناه يسم كتابته بهذا الميسم ولكن بأقدار تبدو متوازنة متوافقة مع المعنى ومحققه لدرجة عالية من التعبير الجميل عنه ، يقول في وصف أحد الكتاب في جملة من العبارات وضعها ابن بسام تحت عنوان «فصل» : (وفلان ساذج الكتابة ، بيّن الجهل والتخلف ، طلق اللسان بالخنا والهجر ، أحد الأفسال من اولي النباهة ، عظيم البطالة والباطل ، ومن كل حليّة جميلة عاطل ، من رجل عييّ اللسان ، مثلوم الجنان فدم الخلقة ، طويل اللحية متهافت ، لم يرهف الأدب طباعه ، ولا أستخرج منه كلمة حكمة) (٢) . ففي هذه العبارات تنويع ظاهر في أواخر كلماتها التي ختمت بها لاتكاد تجد فيها تكلفاً او تصنعاً ثقيلاً مع

(١) عرضت لسمةالسجع والأزدواج بشيء من التفصيل في دراسة سمات النثر الأندلسي في عصر الطوائف المرابطين : انظر : النثر الأندلسي في عصر الطوائف المرابطين / حازم عبدالله ص٤٥٣/٤٧٩

(٢) الذخيرة / ابن بسام ق١م٢ ص٥٩٥

الأزدواج الملاحظ في لفظي الباطل والعاطل اللسان والجنان ، الخلقة واللحية .

وربما لاحظ الباحث في أول كلامه أنه يسلك سبيل السجع والأزدواج باستمرار وتكرار ولكنه لايلبث أن يفتقد ذلك برجوع أبي مروان إلى سمة التنويع بين الفن البياني والصناعة اللفظية وبين أداء المعنى المطلوب بأقدار مناسبة لايشعر القاريء أو السامع معها بسلوك طابع معين أو سمة غالبة ، وكأن أبا مروان الكاتب يريد للسامع أن يفهم عنه بأنه يتبع منهجاً وسطاً يأخذ من كل شيء بالقدر المناسب لأكمال معانيه وتقديمها في حلة زاهية تمتاز بالرقة والسهولة والوضوح مع البساطة في العرض والبعد عن التكلف ليقول في مفتتح تاريخه الكبير — كما يخبرنا ابن بسام : —

(الحمد لله الذي علا في سمائه ، وتفرد ببقائه ، وتسمى الجبار بجبروته وكبريائه فله الأسماء الحسنى والمثل الأعلى،خلق الانسان علّمه البيان،وأجرى بيده فلك القلم العظيم الشان ، فعلّمه مالم يعلم وأشهدْ مالم يحضر..) (١) .

وهكذا نرى عبارات أبي مروان بن حيان في هذه السطور من المقدمة تتسم بسمة السجع في الألفاظ الأخيرة من العبارات الأولى ثم يأتي بالجمل الأخرى متسمة بسمة الأزدواج بحيث تتفق كل فاصلتين متتاليتين في حرف واحد ، ففي السطر الأول نقرأ : في سمائه ، ببقائه ، كبريائه . ثم ينتقل بعدها الى الأزدواج في الألفاظ : الحسنى : الأعلى ، الأنسان ، البيان ...

ونلاحظ سمة الأزدواج تغلب أحياناً سمة السجع وذلك في هذه السطور التي يعرضها ابن حيان بعد مقدمته ولعلها جزءٌ من هذه المقدمة لما تحويه من الأشارات إلى منهج أبي مروان في التاريخ وكتابته والنظر في الحوادث وتحليلها وقد وصفها ابن بسام تحت عنوان : وله (من رقعة) وهي طويلة نسبياً ، يقول

(١) المصدر نفسه ق١م٢ ص٥٧٥ .

في أولها : (وبعد ، فيأتي امرؤُ يسبرتُ لطلب هذا الخبر ، واقتفاء هذا الأثر أحرسُ شارده وأقيّد نافره ، وأبيت بأبوابه ، وأنصبُ لطلابه ، فشغلت به دهراً وفجرت منه نهراً صيرني تراباً لعدنان ، وزماماً على الحدثان ، أقصّ أنباءه ، وأضرب أمثاله ، وأحصي وقائعه ، وأحترز مواعظه...)(١) .

وهكذا تبدو هذه العبارات جميعها سائرة على وفق الأزدواج اللفظي المستساغ على الرغم من أن الكاتب يكتب مقدمته للتاريخ ويعرض منهجاً وأسلوباً في كتابته والنظر في أحداثه ووقائعه (ولكن الكاتب أبا مروان لايمضي في سبيله على هذا النهج طويلاً وإنما ينتقل إلى التنويع والأخذ بالأقدار المناسبة من السجع والأزدواج حتى لايؤثر اهتمامه بهذه السمة الفنية الأدبية على المعاني التي يريد عرضها وخاصة حين ينتقل بعد السطور التي أوردناها في أعلاه الى اهتمامه بالفتنة ومقدماتها ونتائجها وما تمخضت عنه من أحداث جسام ، ويكفي أنها :(الفتنة البربرية ، الشنعاء المدلهمة ، المفرقة للجماعة ، الهادمة للمملكة الموئلة المغربة الشأو على جميع مامضى من الفتن الأسلامية ، ففاضت أهوالها تعاظماً أولهني عن تقييدها ووهمتني ألا مخلص منها...) (٢) .

وبهذا يطالع القارىء هذه العبارات وهو لايكاد يذكر من الأزدواج المكرر في العبارات السابقة شيئاً والسبب واضح جليّ اذْ الأمر هام يستأثر بلب الأنسان وقلبه ويشغله عن كل شيء سوى الحديث عن تفاصيله أو بعض تلك التفاصيل ولمحات منها .

---

(١) الذخيرة / ابن بسام / ق١م٢ ص٥٧٦ .

(٢) المصدر نفسه ق١م٢ ص٥٧٦

صور مجازية في اسلوب ابي مروان :

ولم تكن سمة السجع والأزدواج السمة الوحيدة التي امتاز بها واعتمد عليها أسلوب أبيمروان في كناية وإنما كانت فيه سمات أخرى اتسمت بها كتابته وفي مقدمتها وأهمها صور الكتابية والأستعارة والتشبيه ، وهي تبدو للمتتبع لأثارها في أسلوب أبـي مروان واضحة بينّه قـد أدت غرضها وعبرت عـن المعاني التي استعملت فيها تعبيراً صادقاً جميلاً ، يقول في رسالة هجائيـة وضعها ابن بسام تحت عنوان «فصل» .

(ونعي الينا فلانٌ ، وكان مع ثروته مضاع الجار ممطول الغريم ، عاتـب الصديق مكـرهاً الي الأنام، معضوضاً بأنياب الملام ، مقدماً في صدور الأمثال، ببسطة الرزق ، على ضيق الباع في العلم المفضل، والأتساع في الجهل.)(١) .

واذا تأملنا هذه السطور القليلة من هذه القطعة النثرية التي كتبها أبو مروان في هجاء وزير — على مايبدو— وجدنا أنها تبدأ بجملة من الكنايات اللطيفة الخفيفة لأظهار عجز المهجو وتقصيره في وجوه عديدةمن العلم والسلوك والمظهر فهو مضيّع وغريمه معذب بسبب مماطلته المستمرة ، لايعبأ بعتاب لا يجد له مكاناً من المحبة في قلب أحد وهذا يبدو في العبارات: مضاع الجار، ممطول الغريم ، مكرّهاً إلى الأنام ...

ثم يتبع أبو مروان صور الكناية هذه بصورة استعارة ليكون ذلك أبلغ في التعبير المعتمد على الأنتقال بين الفنون البلاغية والأخذ من كل منها بالقدر المناسب الذي لايصل حدّ التكلف حتى لايكاد القارىء يشعر معه بوجود هذه الصور بل يكاد يجزم أن مايوجد منها ويلاحظ قد جاء عفو الخاطر منسجماً مـــع

---

(١) الذخيرة / ابن بسام ق١م٢ ص٥٣٢

الطبع والذوق خادماً للمعنى ومعبراً عنه بالبلاغة المطلوبة وهذه الاستعارات تبدو مثلاً في قوله : معضوضاً بأنياب الملام . مقدماً في صد والأمثال، على ضيق الباع في العلم والفضل .. وهكذا . تبدو صور الكناية والأستعارة في رسائله الكثيرة في الهجاء بحيث لاتكاد نفتقدها في كل سطر أو عبارة من العبارات المستعملة ، وذلك في مثل قوله في هذه العبارات يهجو كاتباً : (وفلانٌ ساذج الكتابة ، بيّن الجهل والتخلف طلق اللسان بالخنا والهجر ، أحد الأفسال من أولى النباهة ، عظيم البطالة والباطل، ومن كل حليّة جميلة عاطل ، من رجل عيّ اللسان ، مثلوم الجنان فدم الخلقة ، طويل اللحية ، متهافت لم يرهف الأدب طباعه ..) (١) .

ولا تقتصر الصور المجازية في الكتابة والأستعارة على رسائل الهجاء فقط وانما تبدو واضحة جلية كذلك في رسائل التهنئة والمديح والرسائل الأخوانية والمراجعات ، ومن ذلك قوله في رقعة خاطب بها ابن عباد بظهوره على ابن ذي النون : (لو أن فتحاً أعتلى عن تهنئة ممنوحة بارتفاع قدر ،أو جلالة صنع، أوفرط انتقام مستأصل ، أو تنزل حكم من الرحمن فاصل، لكان فتحه هـذا لك ، على عدوٍّ أسود الكبد ، مظاهر البغي على الحسد ، طال والله ما استحييته لامن خجل ، وتنكبته لاعن وهل ، فأبى له رأيه الفائل ، وجدّهُ العاثر ،وحينه المجلوب ، وحزبه المكبوب ، إلا اكتساب العار ، ومماتنة محصد الأقدار ، فجمع الجيش ذا الألوف ، وتجشمّ الشقة العنوف..(٢) .

فهذه العبارات كلها تقريباً تعتمد استعارة أو كناية ، ويلاحظ الباحث أن أبا مروان ينوع في كناياته كما ينوع في استعاراته بين تصريحية ومكنية حتى

---

(١) المصدر نفسه ق١م٢ ص٥٩٥ .

(٢) الذخيرة / ابن بسام ق١م٢ ص٥٧٩ .

ليكاد الباحث يقرر أن هذه الصور تزدحم في رسائل المديح والتهنئة أكثر من ازدحامها وتواردها في رسائل الهجاء ، مما يثير الأهتمام والاعجاب بأن هذه الصور قد استعملت بأقدار كثيرة في الأغراض والموضوعات الأدبية وخاصة المديح والتهنئة وكانت أقدارها أقل من ذلك في الكتابة التاريخية التي تحتاج الى التعبير المباشر الذي يجنح الى الايجاز مع الوضوح . والى جانب فني الأستعارة والكناية نجد أبا مروان يستعمل فن التشبيه في تعابيره وصوره الأدبية وغير الأدبية ولكن القدر الذي استعان به في تعابيره لايرقى الى مقدار استعمال الكناية والأستعارة من ذلك قوله في هجاء كاتب (نعي الينا فلانٌ الدّغل ، غازله السلّ ، كالافعوان الصل... (١) .

فني هذا السطر من الرسالة او القطعة النثرية نلاحظ تشبيهاً واحداً مسبوقاً أبصورة استعارية من نوع الأستعارة المكنية، ثم يتبع التشبيه نفسه بصوراستعارية خرى ، نلاحظ كذلك في ألوان التشبيه التي استعملها أبو مروان أنه قلّما يأتي بالتشبيه العادي بالكاف أو غيرها وكثيراً مايأتي بالتشبيه وقد اسقط منه الأداة ووجه الشبه ليكون ذلك أبلغ في التعبير وأدق في التصوير وخاصة فيالنثر الهجائي ، والتأمل في القطع النثرية من هذا النوع يؤكد هذا وهو أكثر منأن يحصى .

نثر أبي مروان والمجتمع الأندلسي

ولعلّ مما يكمل الصورة الفنية الموجزة عن نثر أبي مروان الفني وخصائصه على صعيد الألفاظ والمعاني أن ننظر في دلالاته الأجتماعية والسمات والملامح التي ترسمها عن المجتمع الأندلسي في عصر أبي مروان بصورة خاصة وهو عصر الطوائف والحق أن من يتأمل الصور النثرية التي أوردها ابن بسام لابن

(١) الذخيرة / ابن بسام ق١م٢ ص٥٩٣

حيان من خلال الأغراض والموضوعات التي تضمنها لايعجزه أن يلاحظ إشارات عديدة توضح معايشة أبي مروان لأحوال المجتمع الأندلسي ومشكلاته وسمات حياته على الصعيد الثقافي والسياسي والأقتصادي والأجتماعي بصورة عامة واذا استعرضنا الرسائل والقطع النثرية على اختلاف موضوعاتها وجدناها تؤكد سمة ثقافية بارزة وهي أن الفترة التي عاش فيها أبو مروان وخاصة بعد سنة ٤٠٠ للهجرة فترة غنية بالثقافة والعلم وكثرة العلماء والأدباء وحاصة الكتاب والشعراء ، وأن هؤلاء الأدباء كان كثيرٌ منهم يجمع الملكتين في الشعر والنثر، والى جانب هذا نجد أن صفة الأدب والبيان والتعبير الجميل المؤثر لاتقتصر على الميادين الأدبية وانما تتجاوزها الى ميادين العلم وألوان المعرفة الأخرى اذ كانت هذه تسجل بأسلوب أدبي جميل مؤثر يأخذ بأسباب الأدب دون أن يقصّر في الألمام بأطراف الموضوع العلمي الذي يعالجه وخيرُ مثل ذلك أبـــو مروان نفسه في جانب كتابته التاريخية التي يبدأ فيها أديباً صادقاً رقيقاً مؤثراً استطاع أن يجمع بين العلم والأدب ويعرض أخباره ورواياته بدقة وأمانة وعقل مفكر محلل معلق بأسلوب أدبي أخاذ ، ومن هنا فإننا نستطيع أن نعدّ هذه الرسائل التي كتبها أبو مروان بأسلوب أدبي وفي أغراض أدبية وثائق تحوي جملة من المعلومات العلمية والتاريخية ضمن الأحداث والتقلبات التي اتسمت بها الفترة وليس فقط على صعيد الرسائل التاريخية أو الكتابة التاريخية التي يكون هدفها الرئيس تسجيل الأحداث والتعليق عليها بعد توثيقها ثم نقلها بعد ذلك الى الاجيال اللاحقة التي تعجب بأسلوبها وتنتفع به كما تعجب بالأخبار التاريخية وتنتفع بها .

وهذه الملاحظات المتعلقة بالحالة الثقافية يمكن الوقوف على العديد منها في الصور النثرية التي سبقت الأشارة الى قطع فيها في مواطنها المناسبة .

أما على صعيد الحياة السياسية الأندلسية في عصر أبي مروان فإن رسائل التهنئة والمديح الموجهة إلى الأمراء والوزراء تحوي دلالات كثيرة على صفاتهم وأخلاقهم وألوان تصرفاتهم وعلاقاتهم برعاياهم ، وخاصة في الجانب العسكري الذي دلّ على وجود الصراع بين أولئك الأمراء وأثر ذلك في الأدب وما يترتب على هذا الصراع من هزائم او انتصارات تستلزم تهنآت كما تستلزم التعازي وقد سبقت الأشارة الى عدد من هذه الرسائل التي توجه بها أبو مروان نفسه إلى بعض أولئك الذين حققوا انتصاراً على أعدائهم وكانت بنيه وبينهم مودة واحترام (١) . ويمكن النظر إلى عدد من رسائل الهجاء التي وجهها أبو مروان نفسه إلى بعض الأمراء وعرض فيها ألواناً من التقصير الحاصل من جانبهم تجاه الرعية ومن ذلك قوله : (وكان فلانٌ من البخل بالمال والكلف بالأمساك ، والتقصير في الأنفاق بمنزلة بزّ فيها ملوك عصره، لم يرغب قطّ في صنيعه ، ولا سارع الى حسنه ولا جاد بمعروف ، فما أُعملت الى حضرته مطية ولا عرّج إليه أديب ولا شاعر ، ولا امتدحه ناظم ولا ناثر ، ولا حظي أحدٌ منهم بطائل..((٢) واذا مضينا الى اخر هذه القطعة النثرية وجدنا أبا مروان يصف فلاناً هذا بأنه جرثومة نفاق ومغرق للرعية كثير الجباية منها يجمع المال دون رحمة بأحد أو ورع أو خوف .

وفي رسائل أبي مروان ومن خلال السطور التي يتأملها الباحث تبدو صورة الحالة الأقتصادية القلقة التي ارتسمت ملامحها بخطوط الحاجة والتفاوت بين أفراد المجتمع وكثرة الجبايات المرهقة مع قلة القوت وحاجة شريحة واسعة من أفراد المجتمع الأندلسي الى المال والمتاع وخاصة في سني الجدب وانقطاع من

---

(١) تنظر الصور التي عرضناها في أول البحث تحت موضوع رسائل التهنئة والمديح .
(٢) الذخيرة / ابن بسام / ق١م٢ ص٥٨٧-٥٨٨ .

الغيث أو تعطل للانتاج بسبب توقف الزراعة وغيرها حيث كانت الفتن والأضطرابات تحول دون ذلك ، وهذا مايبدو لنا واضحاً في رسالة أبي مروان إلى أحد اصدقائه حين طلب منه العون وقد ارسل ذلك الصديق ماطلب اوماكان قد عوده عليه بين حين وآخر وهذا ماصورته رسالة أبي مروان الجوابية المتضمنة الشكر والأعتراف بالفضل لأهله ، وهي في الوقت نفسه تعرض لنا صورة من حياة أبي مروان والظروف التي مرَّ بها وقد كان يعاني من ضيق العيش وشدة الحاجة ماانطقه بتلك العبارات العاطفية المؤثرة مثل قوله : (...فجوزيت أوفى جزاء المنعمين ، وأوفر قرض المحسنين بما أرحت من فكري بكشفك عني في أديم يوم هم عام ، فعمت في أوعيتي ، وأفهقت آنيتي..((١) .

وفي الجانب الأجتماعي لنثر أبي مروان نجده قد صور العديد من المشكلات التي عرفها المجتمع الأندلسي في العلاقات بين أفراده او بين الأفراد والحكام ولا تكاد رسالة واحدة أو رقعة — كما سماها ابن بسام — تخلو من إشارة أو أكثر الى ظاهرة إجتماعية عرفها المجتمع في عصر أبي مروان .

ومن ذلك المشكلة التي عرضها أبو مروان من خلال قطعة تثرية في عتاب قاض قصر — حسب زعم أبي مروان — اتجاهه في عدم اتخاذ إجراء رادع ضد جارته وجاريتها اللائي قد أسأن إليه بألوان من الأساءة المادية والمعنوية فيما يبدو وكان منها سرقة متاع البيت (٢) .

على أننا واجدون مايدل على ظاهرة اجتماعية أعمّ وأوسع من مشكلة أبي مروان التي تبدو شخصية وان كانت لاتخلو من دلالات أجتماعية خاصة في أوضاع البيوت والعلاقات التي تربط بين الأسر ، هذه المشكلة ذات الدلالة

---

(١) المصدر نفسه ق١م٢ ص٥٨٣ .

(٢) ينظر نص الرسالة في الذخيرة / ق١م٢ ص٥٨٠/٥٨١
الجزء الذي أوردناه منها في

العامة تعبر عن جانب من تردي الأوضاع في الأندلس في ظل الطوائف واضطراب الأحوال ، وتسلط أناس لاقيمة لهم ولا وزن ولا دراية قد فقدوا العلم بأمور الادارة والسياسة وتعريف الرعية حتى صاروا يفرضون سلطتهم بالقوة على علية القوم وشرفائهم — كما يرى أبو مروان بن حيان — ، يقول تحت عنوان «فصل» (ومن غرائب هذا الدهر الغفل في اعتبار تحوّل العالم ، والتنويه بمضاعي الأسافل أن هلكت أمّ عجوز لبني كوثر، فاهتبل بنوها في السعي لها ، وإنذار طبقات الناس لشهود جنازتها ، فجيء بسريرها ، وابنُ جهور الوزير يقدم حضّارها ماشياً على قدميه ، قد ائتسى به كلّ ذي منزلة رفيعة ، ووقف على جدثها الى أن ووريت وانفضّ جمعها ، ثم ضرب على قبرها قبة عالية تمهيداً للمبيت عليها طول أسبوعها ومدة زيارة قبرها حسبما كانت الجبابرة تفعله في الأعصر الخالية على قبور الملوك الأعزة.. (١) .

فهذا النصّ الواضح في تصوير حالة المجتمع وحالة الحكام على حد سواء في عهد الطوائف ، إنما يعرض صورة حيّة من ضعف الحاكم إزاء تسلّط قوم لاخلاق لهم ولادراية سوى السفه والجهل والحماقة وبهذه الصفات أخافوا الناس وتسلطوا عليهم في غياب السلطة الشرعية الحازمة التي تضع الأمور في نصابها وتوقف كل إنسان عند حدّه وتعرّفه قدره .

واذا مضيا مع جزء آخر من هذه القطعة النثرية وجدنا أبا مروان يعقب على الحادث الذي عرضه في تشييع المرأة وحضور جنازتها ودفنها وخروج ابن جهور — حاكم قرطبة — في جنازتها وانتظاره حتى الأنتهاء من دفنها ، يعقب أبو مروان بعد ذلك بأن هذا حادثٌ غريب عجيب يدعو إلى الأسى والألم على مدى الأضطراب الذي شهده المجتمع الأندلسي في عصر الفتنة وأوائل عصر الطوائف فيقول :

---

(١) الذخيرة / ابو بسام / ق١م٢ ص٥٩٥

(فتمضي العجب بمشاهدة هذه النادرة في امرأة من نساء حثالة العامة ،مرددة في الخمول ، لم يكن قط بينها وبين النباهة من كلا طرفيها نسبة في الدولة القريبة والبعيدة ، ولا ظفرت ببعلٍ مثرٍ ولا ذرية نبيهة ، عهدي ببعلها الشيخ مطرّف ناجل هؤلاء الصبيان من بنيهّا ...) (١) .

ثم يمضي أبو مروان في أوصاف الأولاد والأب بالصفات السيئة المرذولة من ذلة وضعف وفساد خلق وقماءة وزرايه .

وهكذا يمكن للباحث أن يرسم في ذهنه وذهن القارىء لهذا البحث المتواضع الموجز سمات نثر ابن حيان في جوانبه الشخصية والفردية والأجتماعية ،وما كان له من أثر وما عبر عنه من ملامح وسمات تمثل صاحبه أولاً وبشكل رئيس ثم صورة المجتمع الأندلسي في عصره وما كانت عليه علاقات أبي مروان مع معاصريه من الأمراء والوزراء والكتاب والأصدقاء .

واذا أضاف الباحث صورة النثر التاريخي الذي كتبه أبو مروان في المقتبس ومقدمته بالدرجة الأولى ؛ بما يحويه هذا النثر من صور عديد معبرة عن المجتمع الأندلسي وأحواله في شتى جوانب الحياة ؛ فإنه سوف يستطيع إكمال الصورة العامة المختصرة لمؤرخ أديب عاش حتى منتصف القرن الخامس للهجرة وسط مجتمعه مؤثراً فيه ، متأثراً بمشكلاته ومصاعبه ، مصوراً أحواله المختلفة حتى يمكن القول بأنه مؤرخ الأندلس وأديبها في فترة هامة خطيرة من أخصب فترات الأندلس علماً وثقافة وأدباً الى جانب كونها أشدّ فترات الأندلس اضطراباً وقلقاً على الصعيد الأجتماعي والسياسي .

المصادر والمراجع

١ — أندلسيات / المجموعة الأولى — عبدالرحمن علي المجي .
طبعة دار الأرشاد — الطبعة الأولى ١٣٨٨/١٩٦٩

٢ — بعض مؤرخي الأسلام / علي أدهم : سلسلة الثقافة العامة
المؤسسة العامة للدراسات والنشر ١٩٧٤

٣ — بغية الملتمس / الضبي : أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي
طبع في مدينة بحريط بمطبع روخس ١٨٨٢

٤ — تاريخ الأدب الأندلسي —/ عصر سيادة قرطبة — إحسان عباس
طبعة دار الثقافة / بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٧٥

٥ — تاريخ الفكر الأندلسي / آنخل جنثالث بالنثيا
الطبعة الأولى / مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥

٦ — جذوة المقتبس / أبو عبدالله الحميري
الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦

٧ — الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة / أبو الحسن علي بن بسام .
تحقيق : إحسان عباس — طبع دار الثقافة ، بيروت ١٣٩٨/١٩٨٧

٨ — الشعر في ظل بني عباد / محمد مجيد السعيد
الطبعة الأولى / مطبعة النعمان / النجف ١٣٩٢/١٩٧٢

٩ — الصلة / أبو القاسم خلف بن عبد الملك .
طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ .

١٠ — ظهر الأسلام : أحمد أمين . الطبعة الخامسة ، بيروت
دار الكتاب العربي ١٣٨٨/١٩٦٩

١١ ــ المغرب في حلى المغرب / إبن سعيد وآخرون .
تحقيق / شوقي ضيف / الطبعة الثانية ــ دار المعارف بمصر ١٩٦٤
١٢ ــ المقتبس لابن حيان / من تحقيق محمود علي مكي
لجنة إحياء التراث الأسلامي / القاهرة / ١٣٩٠ ــ ١٩٧١ مطبعة الأهرام .
١٣ ــ النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين / حازم عبدالله خضر
منشورات ، وزارة الثقافة والأعلام / الجمهورية العراقية ١٩٨١ .
١٤ ــ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان / تحقيق إحسان عباس دار الثقافة بيروت .